الفصل الثانى عشر

فى أشعار المفلوكين ومن فى معناهم من مقاصد شتى وبيان أن الحامل عليها إنما هو الفلاكة

اعلم أن الفلاكة إذا استولت على شخص سلبته القدرة على الأفعال انتقل إلى الاسترواح والتنفس بالأقوال وذلك لما أن فى الكلام راحة وفرجًا وتنقيصًا من ألم الباطن، ولذلك قلما يطيق كتمان الأسرار إلا الواحد الفذ، وكذلك أيضًا قلما يطيق الإنسان استدامة أقوال تخالف ما فى باطنه بل لابد له من فلتات مطابقة لما فى باطنه لما أن النفس بطبعها تطمح إلى طلب الراحة والاستلذاذ بحسب المقدور وإذا اتضح أن فى الأقوال تنفسًا وراحة ولذة وتنقيصًا من آلام الباطن وضحت الحكمة فى انتصاب المفلوكين خطباء وشعراء وحكماء فمرة يسلون أنفسهم بترجيح الكمالات النفسانية على الكمالات المالية بالأدلة الخطابية والتشبيهات الشعرية ومرة يذكرون عوارضهم اللازمة بمقتضى الفلاكة ويصوغون عنها أعذارًا وحكمة وتشبيهات رائقة وكلمات فائقة تنقيصًا من قبح صورتها وليشغلوا الناس بما أوردوه فيها من محاسن الكلام عن الفكرة فى صورتها الشنيعة - ومرة يسابقون إلى ذكر نقائصهم ويجعلوننها رقة أدبية أو نكتة شعرية أو كلمة هزلية قبل أن يذكرها غيرهم عنهم ليصرفوا الناس عن الاشتغال بها لأن النفوس تكره المعاد ولذلك قيل فى الأمثال أقبح من معاد ولا يثقل عليه كلامه ككلام غيره - حكى أن الأخفش الصغير كان يحفظ الأهاجى التى هجاه بها ابن الرومى ويوردها فى جملة ما يورده والحكمة فيه ما ذكرته لا ما ذكره ابن خلكان فى تاريخه من أنه كان يقول أنوّه بذكرى بها فإن ذلك أن قاله الأخفش فقوله غطاء على المعنى الحقيقى ولذلك أيضًا يذكرون الأسفار ويغرون بها مرة وينهون عنها أخرى فالإغراء لما قدمته

فى الفصل الرابع والنهى يكون حيرة ودهشًا ولذلك أيضًا يغرون بتطلب المجد والثروة تارة ويأمرون بالقناعة أخرى قلقًا واضطرابًا ويذمون الأيام ويتضجرون ويتململون ويستعتبون ويشعرون وهم لا يشعرون ويتفتنون وهم يفتنون ويحسبون أنهم يحسنون صنعًا ألا إنهم هم الخاسرون ويتلطفون وهم يستثقلون ويتعذرون ولكن لا يعذرون أم تسألهم خرجًا فهم من مغرم مثقلون فإنا لله وإنا إليه راجعون، والأغنياء عن ذلك كله بمعزل وعن العناء فيه بألف منزل قد أغناهم الفعل عن القول والفضل عن الفضول والأعذار عن الاعتذار والإحسان عن صوغ اللسان وأنا أورد إن شاء الله تعالى أحاسن ما يحضرنى من أشعار المفلوكين ومن فى معناهم فى هذه المقاصد كلها وإنما قلت أو من فى معناهم دفعًا لسؤال مقدر توجيه أن المذكور فى هذا الفصل من الشعر منه ما هو من كلام الأماثل والعظماء والنبلاء فالجواب إنه وإن صدر عن عظيم أو نبيل فإنما ذكر بلسان المفلوكين وشرحا لحالهم ونيابة عنهم ورحمة عليهم أو عند عارض فلاكة حقيقية عرضت للوجيه العظيم صيرته فى حكم المفلوك بحسب تلك الحالة أو عند عارض فلاكة حالية بحكم الوارد على القلة فإن الوارد كما هو مقرر فى كتب الصوفية إذا ورد على القلب وشايعته النفس بالاستحسان والاستحلاء ولم يمانعه أكسب حالات وإذا علمت الأحوال المقتضية للأشعار الآتية والحامل عليها فهاكها غير ناس ولا غافل عما قررته فى مقدمة الفصل العاشر فإنه محتاج إليها فى هذا الفصل فمن ذلك قول القائل:

إلى الله أشكو جور دنياكم التى ... تغر الفتى حتى يوارى برمسه

فتكسبه إن أقبلت حسن غيره ... وتسلبه إن أدبرت حسن نفسه

ومنه:

ما تطعمت لذة العيش حتى ... صرت للبيت والكتاب جليسا
أى شيء أعز عندى من العلـ ... ـم فما ابتغى سواه أنيسا
إنما الذل فى مخالطة النا ... س فدعهم وعشر عزيزاً رئيسا

ومنه:

تلحى على البخل الشحيح بماله ... أفلا تكون بماء وجهك أبخلا
أكرم يديك عن السؤال فإنما ... قدر الحياة أقل من أن تسألا
ولقد أضم إلىّ فضل قناعتى ... وأبيت مشتملا بها متزملا
وأرى العدو على الخصاص شارة ... تصف الغنى فيخالنى متموّلا
وإذا امرؤ أفنى الليالى حيرة ... وأمانيّاً أفنيتهن توكلا

ومنه:

عجبت سعاد من ارتياحى للعلا ... فى العدم وهو يفل غرب الجامح
لا يغشنى الإقتار عاراً إننى ... رحب الذراع بكل خطب فادح
ولربما نهض المقل بعبئه ... وحبا به المثرون حبو الرازح
مثل السماكين انتفاعك منهما ... بالأعزل المدحوض فوق الرامح
ولئن خفيت عن الورى وفضائلى ... كمد الحسود ونار غيظ الكاشح
فالنار فى أشجارها مخبوءة ... حتى يتاح لها يمين القادح

ومنه:

أهوى الخمول لكى أظل مرفّهًا ... مما يعانيه بنو الأزمان
إن الرياح إذا عصفن لواقحا ... تولى الأذية شامخ الأغصان

ومنه:

المرء يحظى ثم يعلو ذكره ... حتى يزين بالذى لم يفعل
وترى الشقى إذا تكامل عيبه ... يرمى ويبخل بالذى لم يعمل

ومنه:

شغلنا بكسب العلم عن مكسب الغنى ... كما شغلوا عن مكسب العلم بالوفر
وصار لهم حظ من الجهل والغنى ... وصار لنا حظ من العلم والفقر

ومنه:

لا تحقرن أديبًا راق رونقه ... عن الفصاحة أما راح فى شمل
فالسكر العسلى الحلو من قصب ... والنرجس البابلى الغض من بصل

ومنه:

ينجد بى تارة ويتهم بى ... ضر زمان بأهله جفى
حتى كأنى قذاة مقلته ... أو خبث فوق كاسه طافى

ومنه:

وقالوا توصل بالخضوع إلى الغنى ... وما علموا أن الخضوع هو الفقر
وبينى وبين المال شتان حرّما ... علىّ الغنى نفسى الأبية والدهر
إذا قيل هذا اليسر أبصرت دونه ... مواقف خير من وقوفى بها العسر

ومنه:

ولا تعدن رزقًا ما ظفرت به ... إلا إذا دار بين الحلق والحنك

ومنه:

لا يؤيسنك من مجد تباعده فإن للمجد تدريجًا وترتيبًا
إن القناة التى أبصرت رفعتها تنمو وتحدث أنبوبًا فأنبوبا

ومنه:

والحر من حذر الهوا ن يحاذر الأمر الجسيما
والعاجز المأيوف أقـ ـعد يكون إذا أقيما

ومنه:

المرء يجمع والزمان يفرق ويظل يرقع والخطوب تمزق
ولئن يعادى عاقلا خير له من أن يكون له صديق أحمق
وإن امرؤ لسعته أفعى مرة تركته حين يجر حب يفرق
لا ألفينك ثاويًا فى غربة إن الغريب بكل نبل يرشق
ما الناس إلا عاملان فعامل قد مات من عطش وآخر يغرض
والناس فى طلب المعاش وإنما بالجد يرزق منهم من يرزق
لو يرزقون على وزان عقولهم ألفيت أكثر من ترى يتصدق
لو سار ألف مدجج فى حاجة لم يقضها إلا الذى يترفق

هذه الأبيات لصالح بن عبد القدوس وقوله يتصدق هو ببناء المجهول حتى يصح المعنى المراد وهو أن الغالب على الناس قلة العقل والخفة وأصله يتصدق عليه فحذف عليه ولو قرئ ببناء المعلوم لانعكس المعنى وكان معناه أن العقلاء هم الأكثر وليس بصحيح لا دراية ولا رواية وهذا الرجل اتهمه المهدى بالزندقة فأمر بحمله إليه فلما خاطبه أعجب بغزارة علمه وأدبه وحسن ثباته فأمر بإطلاقه فلما ولى رده وقال ألست القائل:

والشـــيخ لا يـتـرك أخـلاقـه حـتـى يوارى فى ثرى رمـسـه
إذا ارعـوى عـاد إلى جـهـله كـذى الضـنى عـاد إلى نـكسـه

فقـال بلى وأنت لا تترك أخـلاقك فأمـر به فقتل سنة ١٦٧ فـانظر إلى الفلاكة قال حكمـة فكانت سببًا فى قتله ومثله قول عـمارة اليمنى الملقب نجم الدين الشاعر:

هذا ابن تيـمرت قـد كانت بدايتـه كما يقـول الورى لحمًا على وضم
وكـان أولـى هذا الدين مـن رجل سـعـى إلى أن دعـوه سـيـد الأمم

أراد إظهار مـعنى بديع مبتكر فكان سـببًا فى قتله فى أحـد الأقوال فى سنة ٥٦٩ - وكنت هـمـمت أن أضع فصـلا فى الكلمـات التى كانت سـببًـا للحوق ضـرر عظيم لأصحابها كـهاتين الحكايتين واسمـيها بالفلاكـة اللفظية لتكون الفلاكة ثلاثة أنواع مالية ومـعنوية ولفظية ثم بدا لى فى ذلك وخشيت أن يصير الكتاب أدبيًا لا علميًا ولنرجع إلى مقصود الفصل ومنه:

لـيس الخـــمـــول بـعـــار عـلى امـــرئ ذى جـــلال
قـلـيـلـة القـــدر تـخـــفـى وتلـك خـــيـــر الليـــالى

ومنه:

يـــا هـــذه إن رحـــت فـــى شـــمل فـــمـــا فى ذاك عـــار
هـذى المدام هـى الحـــيـــا ة قـمـيـصـهـا خـرق وقـار

ومنه:

ولـيـس قـــبـح المكـان مـا يـزرى به مـنـصـــبى ودينـى
فـــالشـــمس عـلويـة ومع ذا تغـــرب فـى حـــمـــأة وطين

ومنه:

احتل لحقدك فاللبيـ ـب بلطفه يستل ثاره
امضى الحديد أرقه والماء يثقب فى الحجارة
والهجو بيت منه لا يطفى طويل المدح ناره
يخفى الكثير من الحلا وة فى القليل من المرارة

ومنه:

ولا غرو أن يبلى الشريف بناقص فمن ذنب التنين تنكسف الشمس

ومنه:

وإنى وإعدادى لدهرى محمدا كملتمس إطفاء نار بنافخ

ومنه:

فإن تكن الدنيا أنالتك ثروة فأصبحت ذا يسر وقد كنت ذا عسر
فقد كشف الإثراء عنك خلائقا من اللؤم كانت تحت ثوب من الفقر

ومنه:

حيائى حافظ لى ماء وجهى ورفقى فى مطالبتى رفيقى
ولو أنى سمحت ببذل وجهى لكنت إلى الغنى سهل طريقى

ومنه:

ما الناس إلا مع الدنيا وصاحبها فكيف ما انقلبت يومًا به انقلبوا
يعظمون أخا الدنيا فإن وصبت عليه يومًا بما لا يشتهى وثبوا

ومنه:

قالت وقد انتضت سيوف اللحظ ... والدر ممازح لذاك اللفظ
ذا حظك ما أنقصك قلت لها: ... لو شئت لما كنت قليل الحظ

ومنه:

من منصفي من معشر ... كثروا عليّ وكبروا
صادقتهم وأرى الخرو ... ج من الصداقة يعسر
كالخط يسهل في الطرو ... س ومحوه يتعذر
ومتى أردت كشطته ... لكن ذاك يؤثر

ومنه:

إذا فات الفتى شيئان أضحى ... بعيداً من ممازجة القلوب
جمال الوجه أو مال عظيم ... يزين في حضور أو مغيب
فكثر المال يشفع في المثاوى ... وحسن الوجه يشفع في الذنوب

ومنه:

إن الغنى الذى ترضى معيشته ... لا من يظل على ما فات مكتئبا
لا تحقرن من الأيام محتقراً ... كل امرئ سوف يجزى بالذى كسبا
قد يحقر المرء ما يهوى فيتركه ... حتى يكون إلى توريطه سببا
إن العدو وإن أبدى مكاشرة ... إذا رأى منك يوماً فرصة وثبا
إذا وترت امرأ فاحذر مغبته ... من يزرع الشوك لا يحصد به عنبا

ومنه:

أتعبت نفسك بين ذلك كادح ... طلب الحياة وبين حرص مؤمل

ونثرت دهرك لا خلاعة ماجن ... حصلت فيه ولا وقار مبجل
وأضعت حظ النفس فى الدنيا وفى الـ ... ـأخرى ورحت عن الجميع بمعزل

ومنه:

أهل المناصب فى الدنيا ورفعتها ... أهل الفضائل محقورون بينهم
قد أنزلونا لأنا غير جنسهم ... منازل الوحش فى الإهمال عندهم
فليتنا لو قدرنا أن نعرفهم ... مقدارهم عندنا أولو دروه هم
لهم مريحان من جهل وفرط غنى ... وعندنا المتعبان العلم والعدم

ومنه:

إذا كان غير الله فى عدة الفتى ... أتتع الرزايا من وجوه الفوائد

ومنه:

إذا لم يكن عون من الله للفتى ... فأكثر ما يجنى عليه اجتهاده

ومنه:

إذا شئت أن تحيا سعيداً فلا تكن ... على حالة إلا رضيت بدونها
ومن يطلب الغالى من العيش لم يزل ... حزينًا على الدنيا رهين غبونها

ومنه:

إنى رأيت الدهر فى حكمه ... يمنح حظ العاقل الجاهلا
وما أرانى نائلا ثروة ... كأنه يحسبنى عاقلا

ومنه:

إذا وجد الشيخ من نفسه ... نشاطًا فذلك موت خفى

ألست ترى أن ضوء السراج له لهب قبل أن ينطفى

ومنه:

انفض يديك من الأنام فكلهم شحًا يحل وأنت عجزًا تعقد

ومنه:

انفض يديك من الزمان وخيره واحذر بنيه تفز بقلة ضيره
ولقد صفوت فما وجدت مصافيا فى الله أصحبه ولا فى غيره

ومنه:

وأخ لى تكدرت بعد صفو مشار به
صاحبى حين لا يرى فى الورى من يصاحبه
وإذا ما حظى به صد وازور جانبه

ومنه:

إذا لم يكن صدر المجالس سيدًا فلا خير فيمن صدرته المجالس
وكم قائل مالى رأيتك راجلا فقلت له من أجل أنك فارس

ومنه:

وأخ إن رام منى حاجة كان بالإنجاح منى واثقا
وإذا ما رمت منه حاجة كان بالرد بصيرًا حاذقا
يعمل الحيلة فى الرد لها قبل أن افرغ منها ناطقا

ومنه:

إذا ما مدحت الباخلين فإنما تذكرهم ما فى سواهم من الفضل